منشورات جامعة حلب
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

تاريخ الفكر العربي الإسلامي

الدكتور
علي أحمد

Bibliotheca Alexandrina
0136896

لطلاب السنة الثالثة
قسم التاريخ

مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية
١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م

منشورات جامعة حلب
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

تاريخ الفكر العربي الإسلامي

181.07
ت ف ع
٤٨٧٢٤

الدكتور
علي أحمد

لطلاب السنة الثالثة
قسم التاريخ

مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

مقدمـــة

موضوع تاريخ الفكر العربي الإسلامي، من الموضوعات الواسعة التشعبة النواحي والفروع، الأمر الذي ادى إلى شغل حيز هام من اهتمامات ودراسات العلماء العرب والأوروبيين منذ اواخر القرن الماضي. ومن الحق ان نعترف ان بعض العلماء الأوروبيين المنصفين، هم الذين مهدوا وعبدوا طرقه ومناهجه وتفاصيله، وإن جهودهم فيه قد تنوعت، فجاء بعضها فردياً تناول موضوعاً محدداً او ظاهرة معينة، او مرحلة زمنية طويلة او قصيرة، او علماً من اعلام الفكر، مثال ذلك البحث في مؤثرات الثقافة العربية في الكوميديا الإلهية لدانتي، او تاثير آراء ابن سينا وابن رشد في ميدان الفلسفة الغربية في اوائل عصر النهضة، او تصوير النهضة العربية الإسلامية ومنجزاتها في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وكان منها الجماعية، التي تعاونت فيها مجموعة من الباحثين الجادين على دراسة تراث العرب في ميادينه الكبرى، وبيان طرقه ومسالكه إلى الفكر الأوروبي العام.

وقد شهدت الخمسون سنة الماضية منذ بدء النهضة الجماعية في البلاد العربية مشاركة جادة من علماء الشرق والمغرب العربيين في هذا المجال، ظهرت بعض ثمارها في مؤتمرات علمية عربية ودولية، وفي الندوات العالمية في الثقافة العربية ـ في طائفة من الأبحاث التي كشفت عن جديد من النصوص والوثائق الهامة على صعيد الفكر والحضارة العربية، وكذلك عن نطاق التاثير والتاثر بين الفكرين العربي والغربي، كما اخرجت المطابع العربية العديد من الدراسات في هذا الموضوع، تناول بعضها منجزات الحضارة العربية ومقوماتها، وتناول بعضها الآخر آثار التراث العربي في الحضارة الأوروبية.

ومن الجدير ذكره في هذا المقام، اننا لم نكن متعصبين لقوميتنا ولا لأوطاننا، ذلك لأننا نعرف مسبقاً ان التعصب بدون دليل إيجابي وعلمي يكون نوعاً من الجهل، الذي يؤدي إلى ضرر بالغ الأثر في مصالحنا الوطنية، اضف إلى ذلك اننا جميعاً ننتمي إلى امة اعطت الكثير للشعوب والأمم الأخرى بدون مقابل، وفوق كل ذلك نقول، انه من حسن الحظ انه قد انقضت تلك المرحلة او كادت، التي كانت معالجة هذا الموضوع فيها يشوبها احياناً شيء من التعامل او التعصب من جهة، والرغبة في الدفاع عن الكيان وعن التراث القومي من جهة اخرى، وحلت محلها مرحلة من العمل المتواصل في إحكام روابط التفاهم العالمي على اساس العدالة والاحترام المتبادل، وفي اتخاذ دراسة

الحضارات الإنسانية سبيلاً إلى ابراز الوحدة الإنسانية، ودافعاً إلى التعاون الحقيقي في إزالة واستئصال شافة الخصومات، وتخفيف حدة الأطماع والتوترات، والسعي إلى ترسيخ اسس السلام القائم على العدل والمساواة بين الأمم على اختلاف اجناسها والوانها وثقافاتها، ومنبهاً إلى ان الازدهار الحضاري الذي تنعم به بعض دول العالم في العصر الحديث، إنما هي حصيلة الجهود المتعاقبة للحضارات الكبرى، التي تركت طابعها على تاريخ البشرية وتقدمها، ومن حق الأمم جميعاً ان تشارك في خيراته، وتفيد من مجالات تطبيقه، وان التاريخ الحضاري لبنى الإنسان قائم على التعاون والأخذ والعطاء، فلا مكان للشعور بالاستعلاء من جانب المعبر، او بالغضاضة او النقص من جانب المستعبر.

بقي ان نذكّر في مسالة نراها في غاية الأهمية على هذا الصعيد، تتجسد في ان جميع المختصين بالحضارة العربية مطالبون بتطوير دراساتهم في هذا الشان، وبالتالي تكرار طباعة ما انجزوا حتى يتسنى للأجيال الجديدة، ان تقف على مدى المشاركة الفعّالة والدور الرائد الذي شغلته الأمة العربية في الماضي في بناء صروح واعمدة الحضارة الإنسانية، حيث الف علماؤها في مجال العلوم العقلية التطبيقية، كالفلك والرياضيات والهندسة وعلوم الطبيعة والطب والصيدلة والزراعة والفلسفة وما يتصل بذلك، وقد شكلت منجزاتهم العلمية المبتكرة اساساً مكيناً ومنطلقاً سريعاً على طريق تفجير الثورة العلمية في الغرب الأوروبي، هذه الثورة التي اسفرت عن اعظم الاختراعات والابتكارات التي جعلت الناس في انحاء المعمورة، يعيشون حياة تحفل بكل وسائل الراحة والبحبوحة.

وبالجملة فقد حرصنا غاية الحرص، ان يكون هذا الكتاب سهلاً وممتعاً من خلال الابتعاد عن التطويل والإسهاب، والإلتزام قدر المستطاع بالاختصار غير المخل بالهدف الرئيس، الذي يتجسد بإعطاء القارئ فكرة واضحة عن مقدار ما انجزته الأمة العربية في حقول العلوم المختلفة، وما قدمته في فترة العصور الوسطى من خدمات جليلة القدار إلى كل بني البشر دون تفريق بين شعب وآخر، في الوقت الذي كانت فيه دول الغرب الأوروبي وغيرها، تغط في نوم عميق، وحيث كانت الثقافة العربية، هي الثقافة العالمية الرائجة، التي لا تزاحمها ثقافة اخرى.

د. علي احمد

المحتـــوى

- **الفصل الأول:** ٧

الفكر العربي قبل ظهور الإسلام

- **الفصل الثاني:** ١٥

الطب والصيدلة

- **الفصل الثالث:** ٣٧

العلوم الطبيعية = علم الميكانيك – علم الفيزياء

- **الفصل الرابع:** ٤٥

العلوم الرياضية = الحساب – علم الجبر – علم الهندسة – علم المثلثات – علم الفلك (الهيئة).

- **الفصل الخامس:** ٥٥

العلوم الزراعية

- **الفصل السادس:** ٦١

علم الكلام والفلسفة:

١ ـ علم الكلام = الجبرية – القدرية – المرجئة – المعتزلة.

٢ ـ الفلسفة = الفلسفة الروحية – الفلسفة العقلية – الفلسفة التوفيقية – الفلسفة العلمية العقلية – فلسفة إخوان الصفا – فلسفة ابن سينا – فلسفة ابن باجة وابن رشد وابن الطفيل.

- **الفصل السابع:** ٨١

العلوم الاجتماعية:

١ ـ التاريخ = السيرة والمغازي – كتب الطبقات – كتب فتوح البلدان – كتب التراجم – ـ كتب التاريخ العام – كتب الموضوعات والبلدان.

٢ ـ الجغرافية – تطور الجغرافية العربية – أهم الجغرافيين – أهم المؤلفات الجغرافية.

٣ ـ علم الاجتماع = زمن ظهور هذا العلم – ابن خلدون كأول عالم اجتماع في تاريخ البشرية.

- **الفصل الثامن:** ١٠٢

الفكر العربي الإسلامي في مجال العلوم الدينية:

١ ـ علم القراءات.

٢ ـ التفسير.

٣ ـ علم الحديث وأصوله.

٤ ـ علم الفقه وظهور المذاهب الفقهية.

- **الفصل التاسع:** ١١٢

علوم اللغة العربية – علم النحو وقواعد اللغة – الشكل والتنقيط – المعاجم وفقه اللغة – البلاغة – العروض – الشعر – النثر والخاطبة.

- **الفصل العاشر:** ١٢١

الزهد والتصوف = التصوف العادي + التصوف الفلسفي + الطرق الصوفية.

- **الفصل الحادي عشر:** ١٢٨

المؤثرات الحضارية العربية في الغرب الأوروبي وكيفية انتقالها خلال العصور الوسطى = التأثير في مجال الطب والصيدلة، والفلك، والأدب، والفلسفة، والزراعة، والصناعة وغير ذلك.

الفصل الأول:

الفكر العربي قبل ظهور الإسلام

لم يكن العرب في الجاهلية وبخاصة في جزيرة العرب رواد علم ومعرفة، كما كان حال جيرانهم من الروم والفرس على سبيل المثال. ولكن تسرب إليهم كثير من وجوه العلم، التي كانت عند إخوانهم من البابليين والكلدانيين، ومن جيرانهم الفرس والروم، وهكذا نشأت في بيئتهم أنواع من العلم كانوا في حاجة ماسة إليها، حيث كانت تدعوهم إليها الحاجات الملحة. من ذلك علم الطب، والفلك واقتفاء الأثر وما أشبه ذلك(١).

لذلك فقد ترسخت عندهم معرفة ممتازة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها، وعلم ممتاز بأنواع الكواكب وأمطارها، على حسب ما أدركوه بفعل العناية وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك في سبيل المعيشة لا على طريق تفهم الحقائق ولا على سبيل التدرب في العلوم.

وعرف العرب من أسماء الأعداد الآحاد والعشرات والمئات والألوف وذلك كثيرٌ من الشعر الجاهلي وفي القرآن الكريم، ولم يكونوا أيضاً في عزلة عن الحركات الفكرية والاجتماعية والعلمية التي كانت تسود في البلدان المحيطة بجزيرتهم. ويبدو أن الجبر الذي عرفه اليونان والهنود بعد ذلك قد وصل خبره إلى عرب الجاهلية فتعلقوا بالمعادلة البسيطة ذات المجهول الواحد(٢).

أما في الفلك فقد كان لعرب الجاهلية ملاحظات كثيرة لا تدل على أن نفراً منهم كانوا على قسط من علم الفلك النظري والعملي فحسب. جاءهم من جيرانهم في العراق على الأكثر. بل على أن جانباً من ذلك العلم كان شائعاً في الناس. يقول امرؤ القيس مؤقتاً زيارته لحبيبته بقوله في معلقته:

تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً عليَّ حراصاً لو يسرُّون مقتلي

١ ـ انظر صاعد الأندلسي ـ طبقات الأمم ص ٤٢ .

٢ ـ انظر عن ذلك ـ تاج العروس ج ٤ ص ١٣٨ و ج ٦ ـ ص ٣٦٨ .

إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصّل

فامرؤ القيس يخبرنا أنه لمّا جاء لزيارة حبيبته كان عنقود الثريا يبدو في السماء بأعرض جوانبه(٣).

وكانت السماء الصافية في شبه جزيرة تساعد العرب على ملاحظة الكواكب وعلى الاستدلال بها على الاتجاه في السفر وعلى الإهتداء بها في ظلمات البر والبحر، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك مراراً بقوله تعالى: "وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر وقد فصلنا الآيات لقوم يعلمون"(٤).

كما عرف العرب منذ الجاهلية النجوم بأسمائها ومواضعها ومطالعها ومغاربها وشيئاً من خصائصها، وتمرسوا بذلك كله في حياتهم حتى دخلت أسماء النجوم في لغتهم وأمثالهم وأسمائهم. ومن أطرف الأمثال وأدلها على دقة الملاحظة قولهم: "أيها السها فتريني القمر". فالسها نجم خفي جداً يمتحن الناس به أبصارهم، ولا يراه إلا ذوو البصر الصحيح ومن الأماكن التي لا تكثر فيها رطوبة الجو. أما القمر فظاهر لكل إنسان. والمثل يضرب لمن تحاول أنت أن تدله على دقائق الأمور فلا يستطيع هو أن يرى إلا الأشياء العامة الواضحة لكل إنسان(٥).

ومما يدلنا على امتزاج الأسماء الفلكية في الحياة العربية العامة كثرة أسماء الأشخاص المأخوذة من السماء منذ الجاهلية. فقد سمى الجاهليون عب شمس (ضوء الشمس) وبدراً وقمراً وقمبراً وهلالاً والزبرقان (بكسر الزاي: القمر) وسموا عطارد وزهرة، وسموا سهيلاً والثريا وغيرها كثيراً.

وأدرك العرب أن عدداً من النجوم ثابت في السماء (كما رأوه في العين) حتى جعلوا تلك النجوم الثابتة علامات دالة على الأماكن والمساكن، وهذه الكواكب سميت ثابتة لا لأنها لا تتحرك أبداً، بل لأنها تظل دوماً على أبعاد معينة لا تتبدل(٦).

وكان العرب في الجاهلية يُولون القمر اهتماماً شديداً، لأنه كان يضيء لهم وجه الأرض في أسفارهم وأسمارهم، ولأن حركته كانت أبين الوسائل في حسبان الأشهر والسنين. ولاحظوا أن القمر يدور حول الأرض مرة كل ثمانية وعشرين يوماً أو نحو ذلك. ثم لاحظوا أن القمر يكون في كل ليلة قريباً في رأي العين من أحد النجوم الثابتة، فاتخذوا تلك النجوم علامات لمسير القمر

٣ ـ انظر كتاب الأنواء ص ٢٤ ـ ٢٥ .

٤ ـ سورة النحل الآية ١٦ .

٥ ـ انظر كتاب الأنواء ص ١٤٧ ـ ١٤٨ .

٦ ـ النويري . نهاية الأرب ج ١ ص ٦١ .

في فلكه حول الأرض وسموها منازل أو بروجاً.

ومن معارفهم أيضاً الأنواء، التي يقصد بها تبدل الأحوال الجوية فيما يتعلق بالحر والبرد وبالرياح والأمطار. فكان عرب الجاهلية يعتقدون أن الأنواء مرتبطة بسقوط (غروب) منزلة من منازل القمر في المغرب. لذلك فالأنواء عندهم هي من توابع علم النجوم.

عدّ عرب الجاهلية الكعبة موضعاً وسطاً، وجعلوا اليمن عن يمين مستقبل الكعبة، والشام عن شمال مستقبلها أو يساره، والشرق عندهم بطبيعة الحال هو المكان الذي تشرق منه الشمس، والغرب هو المكان الذي تغرب فيه الشمس في رأي العين(٧).

فإذا نحن جعلنا الكعبة مركز تفرع الجهات الأربع ثم استقبلنا بوجهنا مطلع الشمس، كان الشرق أمامنا بلاد فارس، والغرب وراءنا مصر، والجنوب عن يميننا بلاد اليمن، والشمال عن شمالنا أو يسارنا بلاد الشام أو سورية ومهاب الرياح موافقة للجهات الأربع، فالريح الهابة من الشمال من الشام والعراق على نجد تكون باردة يصحبها أمطار وربما ثلوج، وهي تسمى ريح الشمال أو الريح الشامية، ومكان هبوبها بالإضافة إلى ذلك نجدها بين مطلع الشمس (الشرق) أو الشمال الشرقي في عرفنا.

ومهب ريح الجنوب من الجهة الجنوبية الغربية، وهكذا تصل الريح الجنوبية إلى نجد مارة فوق الصحاري الوسطى في بلاد العرب، فتكون جافة، أما ريح الصبا فتهب على نجد من جبال إيران باردة، ولكنها تمر فوق خليج البصرة فتلطف وتصبح منعشة. ولقد أحب الجاهليون هذه الريح كثيراً. والدبور هي الريح الغربية.

ومن علوم عرب الجاهلية، الكهانة والعرافة والعيافة والقيافة.

فالكهانة استعداد في أشخاص مخصوصين لاستخراج المغيبات من الأمور الظاهرة. وكان الكاهن في الجاهلية على جانب كبير من الذكاء والإحاطة بمعارف زمنه، فاكتسب بذلك وجاهة عند قومه وأصبح موضع ثقتهم، يستشيرونه في أمورهم ويسألونه أن يخبرهم بالمستقبل أو أن يحكم بينهم في ما يختلفون فيه. وكانوا أحياناً يستطبونه فيصف لأمراضهم أدوية مزاجية أو علاجاً روحياً هو أقرب إلى السحر والشعوذة. على أن الكاهن كان يصيب أحياناً في ما يشير أو يحكم أو يصف.

٧ ـ انظر القاموس ج ٤ ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ و ج٣ ص ٤٠٢ و ٢٤٨ ـ ٢٤٩ و ج١ ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

وقريب من الكهانة العرافة. بينما الكاهن كان يسأل عن المستقبل كان العراف يسأل عن الماضي. ثم أن العراف كان يشرك الكاهن في كل شيء آخر، وفي تطبيب الأمراض النفسية والمستعصية خاصة.

ويتصل بالكهانة والعرافة فن آخر هو العيافة، التي تعني التكهن بالطير أو بغيرها من أنواع الحيوان. إذا اتفق أن سئل عراف عن أمر إنسان فإنه يزجر (يثير ـ يطرد) أول طائر أو حيوان يمر به، أو يكتفي أحياناً بملاحظة طيران ذلك الطائر أو مسير ذلك الحيوان. فإذا كان ذلك الطائر مثلاً مقبلاً عن يسار العائف إلى يمينه أو من أمامه، كان ذلك فألاً حسناً للسائل، وأما إذا كان الطائر بارحاً، أي ماراً من يمينك إلى يسارك كان ذلك شؤماً على السائل(٨).

وربما شق العائف بطن الطير أو الحيوان ونظر إلى أعضائه الداخلية، كالقلب والكبد، ورأى ما فيها من العلامات والأعراض المرضية، فحال عضو الحيوان من التبدل من الصحة والمرض، كان يدل عندهم على حال السئل من البركة والشوم، ومن النجاح في السفر أو الخيبة، ومن الشفاء من المرض أو الإعضال.

وهناك القيافة التي تتبع آثار الإنسان والحيوان للإهتداء إلى الهارب من الإنسان والحيوان ولمعرفة السارق، الذي لم يخلف وراءه إلا آثار قدميه. والبراعة في القيافة تقوم على تمييز الآثار إذا كان بعضها واقعاً فوق بعض، ثم اكتشاف شخصية صاحب الأثر من آثاره، إذا كان رجلاً أو امرأة، شاباً أو شيخاً صحيحاً أو مريضاً، مطمئناً أو خائفاً يحمل شيئاً أو لا يحمل شيئاً، إلى آخر ما هنالك من وجوه الإمكان.

وهناك الفِراسة أيضاً، وهي دراسة تفاصيل الوجه للاستدلال على النسب بين الأفراد أو على أخلاق صاحب الوجه وعلى ما سيكون من أمره في المستقبل(٩).

أما بخصوص الفلسفة، فإننا نجد في الشعر الجاهلي آراء كثيرة تتصل بالفلسفة الخالصة من نظرية المعرفة، ومن السياسة في العدل والحرية والحلم والشورى والأخلاق. أما الحكم العامة التي وردت في الشعر الجاهلي فكثيرة متنوعة.

كان الحارث بن حلزة يفتخر بأنه يحدُس في كل الأمور، يتطلب المعرفة من غير طريق الحواس، وذلك واضح في قوله:

---

٨ ـ القاموس ج ١ ص ٦١٥ .

٩ ـ انظر المفضليات ص ٥٢ .

فحسبت فيها الركب احدُس في كل الامور وكنت ذا حدس(١٠).

ولطرفة بن العبد آراء في الأخلاق، تقرب من أن تكون فلسفة، لأنه يرى أن الغاية من الحياة هي اللذة المادية العاجلة، ثم لا يلقى بالاً إلى موقف الناس منه في ذلك، ما دام هو وحده سيتحمل نتائج سلوكه. قال في معلقته:

فلولا ثلاث هن من لذة الفتى وجدك لم احفل متى قام عودي
فمنهن سبقي العاذلات بشربة كُميتٍ متى ما تُعلّ بالماء تزبد
وكرّي إذا نادى المضاف محنباً كسيد الغضا بهته المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الخباء المعمد
كريم يروي نفسه في حياته مخافة شرب في الممات مصرد
وذرني وخلقي انني لك شاكر ولوحلّ بيتي نائباً عند ضرغد

فطرفة يرى لذى الإنسان في الخمر وإكرام الضيف واللهو مع النساء، يريد أن يتمتع بهذه في حياته، لأنه لن يكون بعد الموت شيء من ذلك.

ويحب طرفة أن يسلك هذا السبيل ولو اضطر إلى أن يعيش بعيداً عن جميع الناس. ثم هو يرى أن اللوم لا يزيد المندفع في أمر من الأمور إلا إصراراً.

وكان للجاهليين في الحرب رأي سياسي فطري. ولكنه واضح. فتتابع الغزو في البيئة الجاهلية حمل العرب على أن يعتقدوا أن الحرب هي السبيل الوحيد إلى حلّ المشاكل وحسم الخلاف، وكانوا يرون أن القبيلة العزيزة الجانب هي القبيلة التي تظلم غيرها من القبائل، تبدأها بالقتال، أي تغزو غيرها قبل أن يغزوها غيرها.

وكانت الكتابة في العصر الجاهلي معروفة، ولكن لم تكن مألوفة، أي أنه كان في الجاهلية نفر يقرأون الخط. غير أن معرفة القراءة والكتابة، لم تكن منتشرة انتشاراً ملموحاً وبخاصة في البادية.

والأمثلة على وجود الكتابة في الجاهلية كثيرة، مثل القلم: اليراعة إذا بريت أي القلم، والالوك والالوكة والمألُكة أي الرسالة، والصحيفة والقرطاس والكاغذ أي الورق. ومعظم هذه الألفاظ جاءت في الشعر الجاهلي.

وإننا نسأل بأي الأقلام كان يكتب عرب الجاهلية؟ وما شكل الخط الذي كتبوا به؟ ونجيب أنه لا سبيل اليوم إلى معرفة ذلك، غير أننا إذا درسنا تطور الخط العربي، لم نجد من المعقول أن

١٠ . المفضليات ص ٥٣ .

يكون العرب قد أخذوا الخط من القلم الحميري (اليمني) ولا من القلم العبري لأنهما كانا يكتبان حروفاً منفصلة غير متصلة. والأصوب أن يكونوا قد أخذوا الخط عن الآراميين، الذين كانوا يكتبون الحروف متصلة، يزيد يقيناً في ذلك أن الخط الأقدم في اللغة العربية كان يدعى الكوفي.

والذي يبدو لنا أن الكتابة والخط في الجاهلية، كانا على شيء من التطور والرقي مع شيء من النقط والشكل أيضاً، على خلاف ما كان الاعتقاد السائد إلى وقت قريب(١١).

وقد عرف عرب الجاهلية الطب والمداواة معرفة جيدة، فقد كان فيهم أطباء درسوا في فارس أو في بلاد الروم، واستفادوا من خبرتهم بعقاقير بلادهم، فإن الحارث بن كَلَدَة الثقفي سافر في البلاد وتعلم الطب بناحية فارس وتمرن هناك وعرف الداء والدواء. وكذلك النضر بن الحارث بن كَلَدَة، نشأ طبيباً كأبيه، فقد سافر في البلاد واجتمع مع الأفاضل والعلماء في عدد من البلاد، وعاشر الكهنة والأحبار واشتمل وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة القدر، واطلع على علوم الفلسفة وأجزاء الحكمة، وتعلم من أبيه أيضاً ما كان تعلمه أبوه من الطب. وكان للجاهليين براعة في الجراحة وأمراض العين.

ولقد كان هناك نوع آخر من التطبيب بالرُقى والعزائم يقوم به الكهنة والعرافون، ولا ريب في أن هذا النوع الذي شاع في بلاد كثيرة كان شعوذة أو كالشعوذة(١٢).

على أن تاريخ المداواة في الجاهلية كان أمراً آخر. فالبادية أرض قاحلة، لذلك فقد كان عرب الجاهلية عامة وأهل البادية خاصة أكثر احتمالاً للحرمان والمجاعات وأقل تعرضاً للأمراض الحاصلة من الطعام والشراب، لأنهم كانوا يأكلون شيئاً قليلاً. على أن المتعرضين للجراح كانوا أكثر من المتعرضين للأمراض العادية، وذلك لطبيعة الحياة الجاهلية القائمة في البادية على الغزو والثأر. فاتساع البادية وتفرق المساكن واشتداد الحر في النهار إلى خمسين أو ستين درجة ثم هبوط تلك الحرارة في الليل إلى عشرين درجة أو أقل، لا تساعد على حياة الجراثيم وتكاثرها بخلاف حال المدن المكتظة بالسكان والمحجوبة عن نور الشمس، من أجل ذلك لم تكن الحاجة في البادية إلى الطب والتطبيب كالحاجة إليه في المدن(١٣).

وداوى العرب في الجاهلية بالرقى والعزائم والتمائم. ولا ريب في أن هذه تنفع في بعض

١١ ـ ناصر الدين الأسدي ـ مصادر الشعر الجاهلي طبعة مصر ١٩٥٦ ص ٥٩ وما بعدها.

١٢ ـ انظر ابن أبي أصيبعة. طبقات الأطباء ج ١ ص ١١٦ والقاموس ج ١ ص ١٦٨ .

١٣ ـ انظر ابن خلدون المقدمة ص ٩١٨ .

الأحوال النفسية إذا كان مرض المريض وهماً أو اضطراباً، وكان هو يعتقد النفع في هذه الرقى والعزائم. أما في الأمراض والأدواء الجرثومية فليس لهذه الوسائل أثر. ويبدو أن هذه الوسائل لم تكن تجدي حتى في بعض الأحوال النفسية.

وكذلك كان الجاهليون يجرون العمليات البسيطة لقطع شيء زائد في ظاهر البدن. وكانوا لا يعرفون من وسائل التعقيم إلا حمي السكين بالنار. وكانوا يداوون بالكي بعد فشل العلاجات الأخرى، ومنه المثل القائل: آخر الدواء الكي. وكان الكي باباً من أبواب التجربة الفطرية في الجاهلية ولم يكن مضمون الأثر ولا موثوقاً في التجربة، مثال ذلك كان مسافر بن أبي عمرو بن أمية ينادم عمرو بن هند، فأصيب مسافر بالاستسقاء فأشار عليه الأطباء بالكي، فلم يزده ذلك إلا ثقلاً(١٤).

كما كان الجاهليون يعرفون عوارض للأمراض لا يبرأ صاحبها، كالصداع الدائم الذي لا يعرف سببه. وتعودوا التكحل ليدفعوا عن العين شدة الإلتهاب.

وكانوا يعرفون تضميد الجراح ومداواتها لكثرة حاجتهم إلى ذلك في حروبهم، التي كانت شبه مستمرة، كما عرفوا كثيراً من أمراض الحيوان(١٥).

وعرفوا كذلك عدة أمراض كالحمى العامة، وحمى الغب التي تصيب المريض يوماً وتتركه يوماً، وحمى الرّبع، التي تصيب المريض يوماً ثم تتركه يومين ثم تعود إليه في اليوم الرابع، وعرفوا الزحير (الزنظاريا) أو الزحار.. وعرفوا الكباد، وهو وجع الكبد، والقلاب أي داء القلب، وعرّفوا المرض بالحصى(١٦).

على أن الجاهليين كأكثر الشعوب القديمة، وكأكثر الشعوب الحالية، قد عُنُوا جداً براحة المريض وبسكوته عن الشكوى آنياً ولو أضربه ذلك ضرراً كبيراً دائماً(١٧).

وعرف العرب أن الجرب ينتقل بالعدوى من الإبل الجربى إلى الإبل الصحيحة، فكانوا يطلون أماكن الجرب في الإبل بالقطران، ثم يعزلونها عن الإبل الصحاح، بعدئذ يكوون الإبل الصحاح بالنار، كأنما كانوا يلقحونها ضد الجرب.

١٤ ـ انظر الأصفهاني ـ الأغاني ج ١٥ ص ٥٠ الكتبي ـ فوات الوفيات ج ٢ ص ٤٤ .

١٥ ـ انظر عن ذلك القاموس ج ٤ ص ٩٣ ـ ٩٤ .

١٦ ـ انظر عن ذلك بلوغ الأرب ج ٣ ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠ .

١٧ ـ الأغاني ج ١١ ص ٢٩ .

وكان من أشد أطباء الجاهلية، الحارث بن كلدة من الطائف، وابنه النضر ابن خالة رسول الله (ص) وقد حارب المسلمين في معركة بدر، وأُسر في المعركة وأمر الرسول بضرب عنقه(١٨) وابن أبي رمثة التميمي الذي كان بارعاً بالجراحة(١٩).

واشتهر الجاهليون في فن الغناء، الذي كان عندهم في الأصل الحداء كما يزعم مؤرخو الأدب، ثم تطور بعد ذلك، وهم بذلك كجميع الشعوب الفطرية.

وكان تطور الغناء عندهم باحتكاكهم ببعض الشعوب ولا سيما الفرس، الذين استفادوا منهم أشياء كثيرة في هذا المجال وبخاصة الآلات الموسيقية، مثال ذلك آلة الطنبور (وهي كلمة فارسية معربة) التي بقيت موجودة إلى القرن الرابع الهجري(٢٠).

وكان الغناء في الجاهلية قاصراً على النساء، وعلى الجواري المملوكات منهن بخاصة، كما كان فردياً بالأكثر (مرتجلاً أو معداً). ولم يكن في الجاهلية غناء جماعي. وإذا وجد نوع من الغناء الجماعي، فقد كان في التلبية والتهليل كما في بعض المقطعات الشعرية، التي كانت تنشد للحماسة في الحرب من ذلك على سبيل المثال:

نحن بنات طارق نمشي على النمارق(٢١)
ان تهزموا نعانق او تُهزموا نفارق

وستبدأ جميع هذه العلوم والفنون بالتطور في العصور اللاحقة وبخاصة خلال العصر الأموي، حيث ستبدأ شمس التطور بالظهور والنمو.

---

١٨ ـ ابن ابي اصيبعة طبقات الأطباء ج ١ ص ١١٦ .

١٩ ـ طبقات الأطباء ج ١ ص ١١٣ وما بعدها.

٢٠ ـ انظر الأغاني ج ١ ص ٣٦٨ ـ ٣٧٩ والقاموس ج ٤ ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠ .

٢١ ـ النمارق جمع نمرق ونمرقة اي الوسادة الصغيرة.

الفصل الثاني:

الطب والصيدلة

١ ـ الطب

لم يكن في العالم المتحضر في الفترة من منتصف القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر الميلادي علم طبي يعول عليه إلا ما كان منه عند العرب. ولم يشك أحد من أهل العصور الوسطى في قضية تفوق العرب في مجال الطب علماً وعملاً وتنظيماً. وقد بذل الرواد من مؤرخي العلوم جهداً بالغاً في دراسة تاريخ الطب العربي، ووصفوا كيف نشأ في بغداد، وكيف ازدهر حتى بلغ أوجه في عهد الرازي وابن سينا، وكيف انتقل إلى الأمم الأخرى. وكانت الصورة العامة التي قدمها لنا أولئك الرواد واضحة مقنعة، ولا تزال مقبولة عند أكثر المشتغلين بتاريخ العلوم، لم يغيره منها كثيراً ما كشف عن الباحثون المعاصرون، على ما تعلمناه من هذه الكشوف.

وتاريخ الطب العربي تاريخ طبيعي يشبه في جوهره تاريخ النبضات العلمية عامة. سوى أن خطواته تعاقبت سراعاً. وكان تطوره على مراحل واضحة المعالم، قام بها الأطباء العرب طبقة بعد طبقة. فكانت كل طبقة تبدأ من حيث انتهى علم من سبقوها وتزيد فيه. والتقدم العلمي في هذا التطور واضح ثابت علمياً، لا نحتاج في إثباته إلى ما روى القصاصون. فالمطلع على طب حنا بن ماسويه أو حنين بن اسحق، وطب الرازي وابن سينا لا يسعه إلا أن يعترف أن الطب العربي كانت له حياته القوية المستقلة.

وقد اعتمد العرب على الطب اليوناني، لكنهم لم يأخذوا كل ما وصلهم من الحضارة اليونانية في هذا الشأن، إنما قاموا بعملية توفيق بين خبرتهم العلمية والأسس الفكرية التي نقلوها عن اليونان. لذلك نرى العرب بعد أن استوثقوا من علمهم بالطب اليوناني، بدأوا يؤلفون الكتب على غرار المؤلفات اليونانية. وهذا ما سيظهر أمامنا بوضوح من خلال الكتابات التالية.

وقد ظهرت الحاجة إلى الطب عند العرب منذ وقت مبكر، حتى شغلت هذه الحاجة المرتبة الأولى بين اهتمامات العرب على الصعيد العلمي، فتقدم الاهتمام بالطب على الاهتمام بالهندسة والكيمياء على سبيل المثال. سواء كان ذلك من حيث اهتمام الحكام بمؤسساته وتطويرها، أو الإهتمام بأصحاب المهن الطبية، الذين يُعدون المحور الفعال لقيام مثل هذه المؤسسات.

لم يكن هذا الاهتمام مجرد صدفة عابرة، اقتصر على خليفة دون الآخر، أو أنه ظهر في فترة زمنية معينة واختفى في فترة أخرى. بل يمكن القول، أن الأمر كان أبعد من ذلك بكثير، بحيث قام على أسس ودعائم ثابتة ومؤثرة، كان لا بد لها أن تنهض وتستمر، لما لها من تأثير كبير على استمرار حياة المجتمع الإنساني بشكل عام. وتجلت هذه الدعائم والأسس بالمحافظة على الصحة العامة والحؤول دون انتشار الأمراض والأوبئة المؤدية بالنهاية إلى هلاك الإنسان. يضاف إلى ذلك كله أمر في غاية الأهمية والتقدير، كونه يأتي من واقع الدعوة العربية الإسلامية، التي تهدف أولاً إلى تحقيق الحياة السعيدة لبني الإنسان(١).

فقد حض الرسول العربي الكريم (ص) ودعا في كثير من المناسبات على الإقبال على التداوي ومعالجة الأمراض إذا أمكن، وعدم ترك الأمور تسير على طبيعتها كما كان سائداً في المجتمعات العربية قبل الإسلام وغيرها من الأمم السابقة، التي كانت تعتقد أن سبب أمراض الإنسان أرواح شريرة لا يتمكن من شفائها إلا الكهّان والمنجمين، الذين كانوا يعتقدون بوجود صلة بين الإنسان والكواكب في حياته(٢).

شكلت دعوات الرسول (ص) هذه فيما بعد وفاته، القواعد الأولى التي ارتكز عليها علم الطب عند العرب بكل تفاصيله وجزئياته، وثبت أنها كانت ذات دلالات علمية صحيحة، وتشكل في إطارها العام فلسفة وجود علم الطب الحديث، كغرض من أغراض المحافظة على صحة الإنسان وسلامة جسده وعقله، وتجنيبه ويلات الآلام والمتاعب الجسدية التي يمكن أن يعانيها المريض. لقد دعا الرسول الكريم (ص) بصراحة ووضوح إلى تقصي أسباب المرض والقضاء عليها، وذلك حينما سئل مرة: أفي الطب خير يا رسول الله؟ قال (ص): "نعم أنزل الدواء من أنزل الداء"(٣). ودعا إلى النظافة العامة وقاية من انتشار الأمراض والأوبئة، ودعا إلى الاعتدال في الأكل والشرب، لأن الكثير فيها يسبب التخمة وإرباك الجسم وتعرضه للأمراض. ودعا إلى ما

١ ـ نشأت حمارنة ـ تاريخ الطب ـ طبعة مؤسسة الأهلية الجامعية دمشق ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ ص ٨٦ و ٨٧ .

٢ ـ حكمت نجيب عبد الرحمن ـ دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ص ٣٧

٣ ـ ابن جلجل ـ طبقات الأطباء والحكماء ـ تحقيق فؤاد السيد ـ طبعة اولى القاهرة ١٩٨٠ ص ١٣٢ ابن قيم الجوزية ـ الطب النبوي ـ تحقيق شعيب ارناؤوط ١٩٥٥ ص ٥٤ .

يعرف اليوم بالحجر الصحي عند انتشار وباء من الأوبئة المعدية، وذلك خشية تفشي ذلك الوباء وانتقاله إلى أجسام الأصحاء. فكان يقول عن الطاعون: "إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا فراراً منه". ودعا إلى المعالجة النفسية بتطبيب النفوس وتقوية القلوب، ودعا إلى المعالجة بشرب العسل والحجامة(٤).

وهكذا وضع الرسول (ص) الأسس الصحيحة العامة، ودعا الناس إلى الاستعانة بالأطباء، الذين كان عدد منهم معاصراً له في الجزيرة العربية، وفي مقدمة هؤلاء الحارث بن كلدة الثقفي، الذي اشتهر أمره كأول طبيب عربي في الإسلام، مثال ذلك ما ينقله ابن جلجل في كتابه (طبقات الأطباء والحكماء) يقول فيها على لسان سعد بن أبي وقاص: "مرضت مرضاً فعادني رسول الله فقال لي، أين الحارث بن بن كلدة فإنه رجل يتطبب"(٥).

ولتوضيح المستوى الذي كان عليه الطب في عصر الرسول والخلفاء الراشدين يجدر بنا أن نأتي على سيرة أشهر طبيب عربي عُرف في صدر الإسلام، وأهم معارفه الطبية، التي اكتسبها هذا الطبيب العربي ونادى بها، لكي نستطيع أن نتلمس أوجه الشبه والخلاف في المعارف الطبية، ومدى تأثيرها في تطوير علم الطب في العصور اللاحقة، وعلى الأخص في العصرين الأموي والعباسي.

طبيبنا العربي هذا هو الحارث بن كلدة الثقفي، الذي سافر كثيراً في طلب العلم، بالإضافة إلى ما أخذه واكتسبه من الرسول (ص) فقد زار فارس ونزل في مدرسة جنديسابور وتعلم الكثير في مجال معرفة الأمراض وطريقة مداواتها ومعالجتها، كما أنه زار اليمن أيضاً، ولعله استفاد شيئاً جديداً هناك(٦).

أما أهم المعارف الطبية، التي نادى بها الحارث بن كلدة، فهي أنه نهى عن إدخال الطعام على الطعام لئلا يصاب الإنسان بالتخمة التي تؤثر على الصحة العامة. وحض على أكل الفواكه في أوان نضوجها، وتركها إذا ولت وانقضى زمانها. وحض على الزواج من المرأة الفتية، وعدم إتيان المرأة المسنة، وأكد أن الفرق بين المرأة والرجل في السن، يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار. وفي مجال التشريح فقد قسمّ العين إلى ثلاثة أقسام. فنهى عن التعرض لحرارة الشمس كثيراً، لأن ضررها عندئذ يصبح أكثر من نفعها، ونهى عن تناول الدواء إلا عند الضرورة، فإنه لا يصلح شيئاً

٤ ـ انظر ابن قيم الجوزيه ـ الطب البنوي ص ٢٧٩ و ١٧ و ١٨ و ٢٨ و ٢٩ و ٥٠ نشات حمارنة ـ المرجع السابق ص ٨٧ .

٥ ـ ابن جلجل ـ المصدر السابق ص ٥٤ .

٦ ـ ابن ابي اصيبعة ـ عيون الأبناء في طبقات الأطباء ـ تحقيق نزار رضا ـ بيروت مكتبة الحياة ص ١٦١ .

إلا أفسد مثله وأكد بأن الماء حياة البدن وبه قوامه، وإن أنفعه ما شرب منه بقدر(٧).

توضحت الصورة في العصر الأموي بشكل أكبر، من حيث كثرة الأطباء وتطور المعلومات الطبية، ساعد على ذلك عدة أمور منها، أن المنطقة التي قامت فيها عاصمة الخلافة الأموية، كانت من المناطق المتحضرة والمتقدمة نسبياً في الفترة السابقة للفتح العربي الإسلامي لها، بمعنى أنه ليس من الغريب القول، بأنها كانت متقدمة على صعيد الطب والأطباء والحياة الصحية، وبالتالي لا بد أن يكون قد وجد فيها عدد من الأطباء كانوا عوناً لخلفاء بني أمية في تحقيق تطلعاتهم نحو حياة صحية أفضل تتناسب مع الإزدهار الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والديني الذي توصلت إليه الدولة العربية الاسلامية في هذا العصر، لا سيما وأن الأمر لا يتعارض مع تعاليم الدين الإسلامي، التي كانت مصدر كل شيء في ذلك الوقت، وهي لا تتعارض مع هذه التعاليم بقدر ما تطبق روحها ومضمونها وبخاصة منها التي جاءت في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

والشيء الذي يقف أمامنا هنا كمانع قاهر في سبيل دراسة الحالة الطبية والصحية في هذا العصر دراسة تفصيلية واضحة، إن جميع المصادر التي اختصت بالحديث عن الأمويين وحكمهم خلال فترة قرن من الزمان تقريباً، لم تول هذا الشأن كبير اهتمام بالقدر الذي أولته للأحداث السياسية على سبيل المثال. وربما أنه لولا أن بعض الأطباء الذين كانوا قد عملوا لدى بلاط بعض الخلفاء والأمراء، لما كانت ذكرتهم كما هو واقع.

لكن على الرغم من كل ذلك، فإن الأمويين كحكام، كان لهم باع طويل إلى حدٍ ما بالتركيز على الناحية الطبية واستمرارها، كظاهرة تساعد على دفع حركة المجتمع باتجاه التطور، كما وجدوا أنه من الضروري لاستمرار الحياة وسعادة الرعية، الاهتمام بشؤون الصحة العامة لما فيها من فائدة في ازدهار المجتمع بشكل إيجابي، وتسهم في تقدمه على جميع المستويات، وهذا الاهتمام نلحظه منذ مطلع عصر الأمويين حتى خلافة عمر بن عبد العزيز، فاشتهر الطبيب ابن أثال، والطبيب الحكم بن أبي الحكم الدمشقي. وفي ولاية مروان بن الحكم، قام الطبيب السرياني ماسر جويه بترجمة كتاب (أهرن القس) من اللغة السريانية إلى اللغة العربية، وحفظ في خزائن كتب الأمويين حتى ولاية الخليفة عمر بن عبد العزيز، الذي أمر بإخراجه إلى الناس للاطلاع عليه والانتفاع به(٨).

---

٧ ـ انظر ابن جلجل المصدر السابق ص ٥٤ ابن ابي اصيبعة المصدر السابق ص ١٦٢ القفطي ـ تاريخ الحكماء ص ١٦١ طبعة ليزيج ١٩٣٠ .

٨ ـ حكمت نجيب عبد الرحمن ـ المرجع السابق ص ٤١ ابن النديم ـ الفهرست ص ٤١٣ ابن جلجل ـ المصدر السابق ص ٦١